

السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ

ووفاءها بحاجاتِ البشريَّةِ

الفطريَّةِ والروحيَّةِ والأخلاقيَّةِ

«The Sunnah of the Prophet
in Fulfillment of Mankind's natural,
Spiritual and Ethical Needs».

إعداد: د. ميساء علي روابدة

جامعة البلقاء التطبيقية / كلية الأميرة عالية الجامعية

المقدمة

لا ريب أن الدين يعد ضرورة من ضرورات حياة البشر إذ غريزته وفطرته البشريّة برهان على تلك الضرورة، وقد شهد غير المسلمين بفطرة التدين، يقول الفيلسوف الفرنسي هنري برجستون: «لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكنه لم توجد قط جماعة بغير عقيدة دينية»⁽¹⁾، ويقول الفيلسوف أوجست سبانيه: «لماذا أنا متدين؟ إنني لم أحرك شفتي بهذا السؤال مرة إلا وأراني مشوقاً للإجابة عليه بهذا الجواب، وهو أنني متدين؛ لأنني لا أستطيع غير ذلك، فالتدين لازمة معنوية من لوازم ذاتي»⁽²⁾، وأجدر الأديان بالبقاء والانتشار والقبول هي التي تلبي حاجات البشر الفطرية والروحية والأخلاقية، وتسمو فيها القيم الفاضلة التي تستقيم فيها المثل الأخلاقية والقواعد السلوكية التي تضمن صلاح الأفراد والمجتمعات،

(1) دراز، محمد عبد الله، الدين: 142.

(2) العماري، محمد عبد القادر، هذا هو الإسلام: 60.

ومن هنا كان الوفاء بحاجات البشر من الجانب الفطري والروحي والأخلاقي المعيار السليم والدقيق على صحة الدين وعدم تحريفه وتلويثه، والسنة النبوية هي المصدر الثاني بعد القرآن الكريم في وفائها بحاجات البشر، ومما ينبغي التنبيه إليه أن هذا البحث ليس بحثاً استقصائياً إذ لم يُستعرض فيه كل ما ورد من النصوص النبوية الدالة على وفاء السنة بحاجات البشرية الفطرية والروحية والأخلاقية؛ لأن ذلك مما يطول ذكره، فاقصر فيه على موضع الشاهد.

أهداف البحث: يهدف هذا البحث إظهار عظمة الإسلام ومنزلته بين الديانات الأخرى، ودعوة التائهين الذين ضلوا في معرفة الدين الحق (الإسلام) ويهدف أيضاً بيان دور السنة المشرفة في عالمية هذا الدين من خلال وفائها بحاجات البشر الفطرية والروحية والأخلاقية.

منهجية الدراسة: بُنيت هذه الدراسة في منهجية بحثها على المنهج العلمي القائم على ما يأتي:
أولاً: المنهج الاستقرائي والتحليلي: وتحقق ذلك بجمع مرويات السُّنَّة النَّبَوِيَّة التي تضمنت حاجات البشر وتحليل ما جاء في المرويات من مضامين تناولت الأبعاد والمكونات لتلك الحاجات، وبيان علائق المكونات بعضها ببعض.

ثانياً: المنهج الاستنباطي: لإيضاح المضامين، وأبعادها في السُّنَّة النَّبَوِيَّة، ويتحقق ذلك من بعد استقراء المرويات الحديثة، وتحليلها، والاستفادة من فقهها، وربطها بواقع الحياة.

ثالثاً: منهج المقارنة والموازنة: وذلك من خلال مقارنة وفاء السنة النبوية بحاجات البشر الفطرية والروحية والأخلاقية مع التشريعات والقوانين الوضعية.

خطة البحث: وهذا البحث يتناول جوانب السنة النبوية ووفائها بحاجات البشر، وذلك على النحو التالي:

المبحث الأول: وفاء السنة النبوية بحاجات البشرية الفطرية، وتشمل المطالب التالية:

المطلب الأول: فطرة الأكل والشرب.

المطلب الثاني: فطرة النوم.

المطلب الثالث: فطرة طهارة الجسد.

المطلب الرابع: فطرة اللباس.

المطلب الخامس: فطرة الزواج.

المبحث الثاني: وفاء السنة النبوية بحاجات البشرية الروحية، وتشمل المطالب التالية:

المطلب الأول: التوكل على الله والاعتصام به.

المطلب الثاني: تحقيق الطمأنينة والأمن الروحي.

المطلب الثالث: محاسبة النفس ومراقبتها (النقد الذاتي).

المبحث الثالث: وفاء السنة النبوية بحاجات البشرية الأخلاقية.

المطلب الأول: العدل.

المطلب الثاني: الوفاء بالعهد.

المطلب الثالث: الرحمة.

المطلب الرابع: التسامح.

المطلب الخامس: التساند بين الفرد والجماعة.

المبحث الأول

وفاء السنة النبوية بحاجات البشرية الفطرية

تميز الإسلام العظيم بطابعه الفريد في بناء الإنسان، ووفائه بحاجات فطرته⁽¹⁾ التي فطر الله الناس عليها، وهذا يدل على كمال هذا الدين وعظمته، وإرسائه القواعد المثلى لبناء مجتمع إنساني سليم من الآفات والعوارض التي تعيق، أو تلغي الرغائب البشرية، ومن هنا نظمت السنة النبوية الوفاء بحاجات الفطرة، وهذا برهان ساطع على عالمية السنة النبوية وصلاحيتها لكل زمان ومكان، فهي رسالة سماوية سامية شاملة تهدف إلى صلاح البشرية عموماً ولذلك كان مقصدها الرقي بالإنسان من خلال فطرته السليمة التي تتطابق تطابقاً كاملاً مع السنة المطهرة، فمطالب النفس البشرية النفسية، والجسمية، والغرائز جعلت لها ضوابط، فلم تعمل على إلغائها ولا وسّعت حدودها، كل ذلك من أجل حفظ التوازن الطبيعي للإنسان وفطرته، فرغائب الجسد مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بدوافع المطالب الروحية، والسلوكية، والنفسية، ولا يمكن لنمو الإنسان نمواً سليماً وصحياً بتجاهل هذه الحقوق والحظوظ، فقد ضمنت السنة النبوية مطالب الفطرة الإنسانية في مختلف جوانبها، ووفقت بين الانفعالات والكبت مراعية بذلك بين الجسد والروح، والفرد والجماعة، وأنواع الحقوق الأخرى، «ولم يسجل التاريخ أن رجلاً واحداً سوى النبي محمد ﷺ كان صاحب رسالة عالمية، وباني أمة، ومؤسس دولة»⁽²⁾ ومن أمثلة ذلك حديث أبي جَحْفَةَ، قال: «أَخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أَبُو الدَّرْدَاءِ مُتَبَدِّلَةً⁽³⁾، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِأَكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، فَقَالَ: نَمْ، فَتَأَمَّ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ، فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ آخِرُ اللَّيْلِ، قَالَ سَلْمَانُ: قُمْ الْآنَ، قَالَ: فَصَلَّيَا، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلَاهْلِكَ عَلَيْكَ

(1) الفطرة: هي الجِبِلَّةُ التي عليها أصل الخَلْقَةِ الإنسانية، ينظر: الزبيدي، تاج العروس، 329 / 13، مادة (فطر).

(2) ينظر: الجندي، أنور، عالمية الإسلام: 91.

(3) مُتَبَدِّلَةً: أي تاركة للتزين بالهيئة الحسنة الجميلة، ينظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، 1 / 111.

حَقًّا، فَأَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَى النَّبِيُّ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «صَدَقَ سَلْمَانٌ»⁽¹⁾، فقد رَجَى النبي ﷺ أصحابه على عدم الغلو والتقصير، وكل ذلك من أجل تحقيق الاعتدال والتوازن بين مطالب الجسد والروح، والمتأمل في مرويات السنة النبوية أيضاً يجد النبي ﷺ مصححاً للمفاهيم الخاطئة التي تظن أن تغليب مطالب الروح وإهمال رغائب الجسد هو السبيل القويم والوحيد لصالح النفس البشرية وفطرتها، ومن صور ذلك حديث: «جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ⁽²⁾ إِلَى بَيْتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَانَتْهُمْ تَقَالُوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غَفَرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أَصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ، وَلَا أَفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ: أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتَّقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»⁽³⁾، فالسنة النبوية تربط ربطاً وثيقاً بين العبادة والحياة وتجعلها وحدة متكاملة، فلا تنشطر فطرة الإنسان بذلك الربط المحكم؛ لأن كل المناهج والديانات والملل الأخرى فصلت بين الدين والدنيا، وبين المطالب الروحية والجسدية، ولم توفق بينهما، فالمسيحية فشلت في صورتها العملية عند التطبيق «لأنها تطلب من البشر فوق ما يطبقون احتمالاً، ولأن كبت النوازع الفطرية أمر مستحيل، فدفعه الجسد قوياً عنيفة، وهي لا تفتأ تُلحُّ على الإنسان وتضغط عليه ضغطاً ليستجيب إليها، فإذا وقع الفرد بين ضغط الغريزة الدائم المُلحِّ، وبين العقيدة التي توحى إليه أن الاستجابة لهذا الضغط دنس لا يجوز أن يلوث به نفسه، فليس لذلك إلا نتيجة واحدة أو إحدى نتيجتين: إما أن يستجيب لوعي العقيدة - إن استطاع - فيترهبين وينقطع عن الحياة والأحياء، أو يستجيب لدفعه الجسد العنيفة المُلحَّة، فيطلق الشحنة الحبيسة التي يرهقه حبسها ويعذبه، ولكنه مع هذا لا ينجو من العذاب فهناك الصراع الداخلي

(1) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له، ح(4903)، 5/199594.

(2) رهط: الرهط من الرجال ما دون العشرة، ينظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: 2/283.

(3) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، ح(4779): 5/1949.

العنيف الذي ينشب في ضمير الفرد الذي تستولي عليه هذه العقيدة: صراع بين ما فعله وما كان ينبغي أن يفعله، صراع بين الجسد والروح»⁽¹⁾، علماً بأن الإسلام العظيم والسنة المطهرة تحديداً وظّفت فطرة الإنسان توظيفاً متكاملًا بين حق الله تعالى وحق النفس البشرية، ومعها كذلك حقوق الآخرين وما يستتبع ذلك من التزامات، ولذا يمكن القول بأن هذا الأمر يعد دليلاً على عالمية الإسلام وظهوره على كل الأديان الأخرى؛ لسموه في توحيد الأولوية وسهولة فهمه، وتحقيقه لاحتياجات البشر الدينية والدنيوية، وترشيده للقواعد السلوكية والأخلاقية التي تضمن صلاح الفرد في نفسه ومجتمعه، ولذلك وعى الصحابة رضي الله عنهم معاني الفطرة وأوجهها، فلم يسلكوا مسلك رهبانية أهل الكتاب، ولم ينغمسوا انغماساً كاملاً في ملذات الجسد، ويمكن إيضاح بعض أوجه عالمية السنة من خلال فطرة الأكل والشرب، وفطرة النوم، وفطرة طهارة الجسد، وفطرة اللباس، وفطرة الزواج.

المطلب الأول: فطرة الأكل والشرب

اعتنت السنة النبوية بحاجات البشر الفطرية والتي يتحقق من خلالها البقاء، ويكون الجسد بها سليماً قوياً، ومن هذه الحاجات الفطرية فطرة الأكل والشرب، وقد امتن الله تعالى على قريش بأنه ﴿أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ (قريش:4)، وذكر أنه من أوصاف رسله وهم صفوة الخلق أنهم يأكلون الطعام، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَسْلَوُا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٧) ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ (الأنبياء:7-8) «فأكل الطعام من مقتضيات الجسدية، والجسدية من مقتضيات البشرية»⁽²⁾، فحاجات البشر الفطرية في الأكل والشرب ظاهرة للعيان؛ لأن تغذية أجسادهم تجعلهم قادرين على الاستمرار، ولا يمكن في حال من الأحوال تحيل البشر من غير أكل أو شرب، ومن هنا جاءت السنة المطهرة للتنبية على أن الصوم والذي هو امتناع عن الأكل والشرب من طلوع الفجر إلى غروب الشمس لا يكون دائماً وديناً، ولذلك صحَّح النبي ﷺ للنفر الثلاثة الذي قال واحد منهم: «أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ، وَلَا أَفْطِرُ»، فردَّ

(1) قطب، محمد، الإنسان بين المادية والإسلام: 12.

(2) قطب، سيد، في ظلال القرآن: 4 / 2368.

عليه النبي ﷺ بقوله: لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ... فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سِتِّي فَلَيْسَ مِنِّي⁽¹⁾، وكان من أدعيته ﷺ الاستعاذة من الجوع كما في حديث أبي هريرة ؓ «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ فَإِنَّهُ يَشْسُ الضَّجِيعُ»⁽²⁾، والنفس البشرية تحتاج إلى الحذر من الجوع كما تحذر من التَّخَم:

وَاخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شَبَعٍ فَرُبَّ مَحْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ⁽³⁾

ومن هنا ندرك خطأ المتصوفة وانحرافهم في جعلهم الجوع أحد وسائل المعرفة وصفاء القلب، والسلوك القويم، فقد تجاهلوا في فعلهم واقعية الإنسان في غرائزه وفطرته، ولذلك تعذر عليهم طمس هذه الغريزة ومن ثم بالغوا في الشهوات، ومن أجل ذلك جاءت السنة النبوية مؤكدة على حفظ توازن الجسد من حيث الأكل والشرب، ففي الحديث: «مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءَ شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أَكْلَاتٌ يُقْمَنُ صُلْبُهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَتُلْتُ لِبَطْنِهِ، وَتُلْتُ لِشَرَابِهِ، وَتُلْتُ لِنَفْسِهِ»⁽⁴⁾، فملء ثلثي حجم المعدة هو الحد الطبيعي والمتوازن في درجات الشبع عند الإنسان، وهذا الحديث تناول إحدى الحقائق العلمية الطبية الوقائية، فالإفراط في تناول الأطعمة ضار بصحة البدن؛ لأن البدانة (السمنة) يصاحبها كثير من الأمراض الخطرة كالسكري، وضغط الدم، وداء النقرس، وغيرها من الأمراض⁽⁵⁾، ولم يدرك هذا السبق النبوي أحد من الأطباء والمختصين إلا في وقت متأخر، وهذا يدل على عالمية السنة المطهرة إذ حذرت منظمة الصحة العالمية من ضرر البدانة الكبير على صحة البشرية.

(1) سبق تخريجه ص (5).

(2) أبو داود، السنن، كتاب سجود القرآن، باب في الاستعاذة، ح (1547): 1/ 483، والحديث حسن؛ لأن فيه محمد بن عجلان وهو (صدوق) كما قال ابن حجر في تقريب التهذيب: 2/ 496.

(3) البوصيري، شرف الدين محمد بن محمد بن سعيد، البردة: 5.

(4) الترمذي، جامع الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، ح (2380): 4/ 168.

(5) ينظر: الصاوي، عبد الجواد، الإعجاز العلمي في حديث الثلث: 9.

المطلب الثاني: فطرة النوم

يُعدُّ النوم آية من آيات الله تعالى التي فُطِرَ البشر عليها، فقال ﷺ: ﴿وَمِنْ مَائِنِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ (الروم: 23)، وقال أيضاً: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۖ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ (النبا: 10-11)، وجاءت السنة النبوية مؤكدة ومرشدة إلى هذه الفطرة التي تنمي قابلية الجانب البدني، وتجعله قائماً بمهامه ومطالبه، وهذه الوسطية والاعتدال مما يؤكد عالمية هذه السنة الشريفة، ويجعلها تتخطى حدود الزمان والمكان، وتخطب الأفراد والجماعات؛ لأنها جاءت متفقة مع الفطرة ولا تضادها، ومن هنا وامت بين الجسد والروح، ولم تُغلب جانباً على آخر، ومن أمثلة ذلك قوله ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَلَا تَفْعَلْ، صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، فَإِنَّ لِحَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا...»⁽¹⁾، وفي لفظ آخر: «...وَقُمْ وَنَمْ، فَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا...»⁽²⁾، فوجد النبي ﷺ يحرص على إيفاء الفطرة حقها، بقوله: «إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّي، فَلْيَرْقُدْ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعِسٌ لَا يَدْرِي لَعَلَّهُ يَسْتَغْفِرُ، فَيَسْبُ نَفْسُهُ»⁽³⁾، فقد أمر بقطع الصلاة والانصراف منها لما تعارضت هذه الصلاة مع فطرة الإنسان الطبيعية في حالة النوم، وعَلَّلَ ذلك بأنه يستبدل السَّبَّ بالاستغفار، وفاعل ذلك يغالب فطرته والفطرة لا تُغالب؛ لأنها غالبية في نهاية المطاف.

وليس من سنة النبي ﷺ الغلو والإفراط في إهمال حظوظ النفس وفطرتها حتى لو كان يستدعي ذلك ترك ما يُتعبد به من النوافل، فالنفس البشرية لها حدود وطاقات في قدرتها على التحمل؛ لأنه ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: 286)، وعندما أخبرت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا النبي ﷺ عن الحَوْلَاءِ بِنْتِ ثُوَيْتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها كانت «لَا تَنَامُ اللَّيْلَ» من أجل إكثارها من نوافل الصلاة، فأنكر النبي ﷺ ذلك عليها، وقال: «لَا تَنَامُ اللَّيْلَ! خُذُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ...»⁽⁴⁾،

(1) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به، ح (1159): 2/ 812.

(2) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الصوم، باب حق الأهل في الصوم، ح (1876): 2/ 698.

(3) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الوضوء، باب الوضوء من النوم، ح (209): 1/ 87.

(4) مسلم، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب أمر من نعس في صلاته، ح (785): 1/ 542.

فالنوم فيه راحة للعين والذهن والجسد، وقد أكدت البحوث والدراسات الطبية منافع النوم للجسم والتي منها: زيادة مخزون الطاقة، وتنشيط الذاكرة، وإراحة الجهاز العصبي، وتقليل نمو الخلايا السرطانية، وغيرها⁽¹⁾، وهذه الفطرة وكيفية التعامل معها، وتسديدها دليل على عالمية الإسلام ووسطيته، من خلال توازنه واعتداله، فالفطرة الربانية طريقها سوي لا يحمل غلوًّا ولا تفريطاً، ومن أجل ذلك نهت السنة النبوية عن طغيان بعض القيم الفاضلة على حساب الأخرى؛ لأنه لا ينسجم مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

المطلب الثالث: فطرة طهارة الجسد

حضت السنة النبوية على التحلي والاتصاف بخصال الفطرة التي تتواءم مع التكوين البشري، وتنسجم معه انسجاماً كبيراً، وهذه الخصال تمثل فطرة الإنسان في طهارة ظاهره وباطنه، وبذلك فسّر ابن عباس الكلمات التي ابتلى الله تعالى إبراهيم عليه السلام بها في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَتَلَيْتُ إِبْرَاهِيمَ رُبِّي بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ (البقرة: 124) بطهارة الجسد ونظافته، وإزالة تَفَثِهِ⁽²⁾، ومن الخصال التي صرح بها النبي ﷺ وعدّها من سنن الفطرة حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «عَشْرٌ مِنَ الْفِطْرَةِ: قَصُّ الشَّارِبِ، وَإِعْفَاءُ اللَّحْيَةِ وَالسَّوَاكُ، وَاسْتِنْسَاقُ الْمَاءِ، وَقَصُّ الْأَظْفَارِ، وَغَسْلُ الْبَرَاجِمِ⁽³⁾، وَتَنْفُ الْإِبطِ، وَحَلَقُ الْعَانَةِ، وَانْتِقَاصُ الْمَاءِ⁽⁴⁾»⁽⁵⁾، فهذه كلها خصال مستحسنة في العقول، محمودة مستحبة في الأخلاق والعادات، وقد أكّدها التوقيف من الرسول ﷺ⁽⁶⁾، وقد شهد سفير ألمانيا في المغرب مراد هوفمان بعد استعراضه صور الطهارة وموجباته في الإسلام كالغسل والوضوء وغيرهما، فقال: «يمكنني أن أقول بصدق: إنني انزعجت مراراً من رائحة أناس يجلسون بجانبي في حفلات الأوبرا الغنائية في باريس، أو في مركز لنكولن في نيويورك، أو في المسرح الوطني في

(1) بوريلي، أسكندر، أسرار النوم: 22.

(2) ينظر: الطبري، جامع البيان: 9/2.

(3) البراجم: العقد التي في ظهور الأصابع يجتمع فيها الوسخ، ينظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: 1/113.

(4) انتقاص الماء: أي الاستنجاء بالماء، ينظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: 2/283.

(5) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، ح (261): 1/223.

(6) الجصاص، أحمد بن علي، أحكام القرآن: 1/82.

ميونخ؛ إلا أنني لم أنزعج من رائحة كريهة على الإطلاق في مسجد من مساجد المسلمين⁽¹⁾ فسنن الفطرة جُعِلَتْ في أمة محمد ﷺ كما جعلت في ملة أبينا إبراهيم عليه السلام وهذا يدل تدليلاً ظاهراً على عالمية السنة النبوية إذ اتفقت الملل عليها، فلم تخص أمة نبي دون آخر، وهو يدل على استمرار الشرائع السماوية بمراعاة هذه الفطرة إذ لم يرو نسخها أو إلغاؤها، وعالمية السنة المطهرة تظهر كذلك من خلال عنايتها بسنن الفطرة والتي من آثارها الصحية الوقاية من الأمراض والأوبئة الضارة بالأفراد والشعوب كافة، والذين أهملوا سنن الفطرة هم في الحقيقة منسلخون من إنسانية هذه الغريزة الفطرية، ولو أرسلوا على سجيبتهم لظهرت عليهم عند الاسترسال، وهذا الأمر يؤكد عالمية السنة النبوية وسموها عن التعقيدات التي اتسمت بها الديانات والملل الأخرى، ويجعلها في المقام الأول في بناء الأمم؛ لما فيها من الرشد والنظرة المتكاملة، والمطلع على الواقع المعاصر يجد النفس الإنسانية عطشى؛ وذلك لإطفاء ظمئها من الضياع في الديانات المحرفة والفلسفات الضالة، والقوانين القاصرة، والنظريات التي تتخطى الواقع الحقيقي للنفس البشرية.

المطلب الرابع: فطرة اللباس

من أعظم معطيات السنة النبوية السديدة إرشادها إلى النظرة الصحيحة والسليمة فيما يخص أحكام اللباس انطلاقاً من مبدأ تحقيق قيمها المضيئة التي لا تتعارض مع الفطرة الإنسانية، واختيارها لها ما يناسبها، وهذا بدوره يبين عالمية السنة النبوية وريادتها في هذا الجانب؛ لاستضاءتها بنور الوحي، وقد نص القرآن الكريم على فطرة اللباس وسماءه زينة، فقد أمر الله تعالى بترك التعري، وأكرم بني آدم بستر العورة، فقال - جل وعلا -: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لُبَاسًا يُؤَكِّرُ سَوْءَ نَفْسِكُمْ وَبَدِئًا ۖ﴾ (الأعراف: 26)، وارتبط اللباس ارتباطاً وثيقاً بالعبادة من خلال السنة المطهرة، ومن أجل ذلك تنوعت أحكام اللباس الفقهي وارتباطه بالعبادة بين أحكام التكليف الخمسة، وصار أيضاً في بعض العبادات شرطاً أو ركناً، ولا يمكن تحقق العبادة بأنواعها المختلفة من غير زينة اللباس، ومن أنوار السنة النبوية السديدة فيما يخص اللباس ترغيبه ﷺ في لبس

(1) هوفمان، مراد، الرحلة إلى الإسلام: 123.

الثوب الحسن وتعليقه لذلك بـ «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»⁽¹⁾، فقد أدرج الرسول الكريم حسن الثوب في حب الله تعالى لصفة الجمال، وعدَّ لبس الثوب الجميل والحسن من أسباب حب الله تعالى لرؤية نعمته على عبده، فعن أبي رجاء العطاردي، قال: «خَرَجَ عَلَيْنَا عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ وَعَلَيْهِ مِطْرَفٌ مِنْ خَزٍّ»⁽²⁾ لَمْ تَرَهُ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ وَلَا بَعْدَهُ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ نِعْمَةً، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ نِعْمَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ»⁽³⁾.

المطلب الخامس: فطرة الزواج

فطرة الزواج من الغرائز الإنسانية والتي لها دور فاعل في استمرار تناسل الحياة البشرية، والجسم البشري له حظ من الفطرة في الإشباع الجنسي، وهو ضرورة من ضرورياته، فالله تعالى جعل الحياة البشرية وفطرتها في الزواج وهي من آيات قدرته الدالة على عظمته وحكمته، فقال - جل وعلا-: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم: 21)، فالزواج يُنمّي المودة والرحمة والألفة بين الزوجين، ومن هنا كانت فطرة الله تعالى التي خلق الناس عليها لا يمكن تبديلها ولا الاستعاضة عنها بأي أمر من الأمور؛ لأن الله تعالى خلق البشر موافقاً لطبيعته ووجوده، فالزواج آية من آيات الله الدالة على عالمية الإسلام من غير استتقار ما فُطِرَ عليه البشر؛ لأن ذلك الاستتقار أو الرهينة يخالف فطرته، ولا يليح حاجات نفسه وعقله وجسده، فالزواج في النصرانية وفي كتابات «بولص» الواردة في الإنجيل «تُشِين الزواج افتراءً وتمدح العزوبة داعية إلى الرهبانية، والتي تسببت للكاثوليك في كثير من الآلام والمعاناة، والعُقد الجنسية، والشعور بالذنب، وغير ذلك من المشكلات»⁽⁴⁾، لذا اعترفت السنة النبوية بالغائب البشرية ونظمتها في أطر الضوابط الشرعية والأخلاقية، والتي هي بمثابة صمام الأمان للغرائز الإنسانية من أجل حمايتها من الانحراف أو الإسراف، ففطرة الزواج يجد الإنسان

(1) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيان، ح (91): 93 / 1.

(2) مطرف خز: ثوب من حرير عليه أعلام ورسوم، ينظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: 121 / 3.

(3) ابن حنبل، مسند الإمام أحمد: 159 / 33، والحديث صحيح.

(4) هوفمان، مراد، الإسلام كبديل: 46.

الراحة والسكينة والاستقرار بين الرجل والمرأة، ويلبي لكل منهما غرائزه ورغائبه من غير انحراف ولا اضطراب ولا تفسخ اجتماعي ولا فوضى جنسية كما هو الحال عند الغربيين، وكل هذا عقوبة من الله تعالى لمن يخالف فطرته ويتنكبها، وقد أظهرت ذلك «الإحصائيات»⁽¹⁾ التي تدل على جسامه هذا الأمر وخطورته، فقد أثبتت دراسة ميدانية «أجريت على (34500) شخص تبين من خلالها أن الزواج يساعد على الاستقرار النفسي»⁽²⁾، ويخفض من أسباب الإصابة بالاكْتئاب والانتحار والأمراض الجنسية؛ ومن أجل ذلك حضت السنة النبوية على الزواج ورَبَّتْ عليه أجراً، ونَهَتْ عن التَّبَتُّل؛ لأنه يُعِدُّ رَهْبَةً باطلة ومبتدعة، وفيها اعتداء على المطابقة بين الشريعة والفطرة، فقد «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُ بِالْبَاءَةِ»⁽³⁾، وَيَنْهَى عَنِ التَّبَتُّلِ»⁽⁴⁾ مَهْيَاً شَدِيداً، وَيَقُولُ: تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ، إِنِّي مُكَاثِرُ الْأَنْبِيَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»⁽⁵⁾، فالسنة النبوية تنظر إلى الإنسان نظرة طبيعية، ومن أجل ذلك سايرت فطرته وطبيعته وخصائصه، ولم تحرمه من هذه الفطرة؛ لأنها تنفعه نفعاً عظيماً، وأبقت عليه من خلال زواجه وتناسله، ولم تسلك به سبيل الفناء والانقراض، بل ربت السنة النبوية الثواب والصدقة لمن يعاشر زوجته في الحلال، فعن أبي ذرٍّ مرفوعاً: «... وَفِي بُضْعٍ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتُهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وَزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»⁽⁶⁾، فالسنة المطهرة فتحت الثواب على الاستمتاع المباح تأكيداً منها على فطرة الزواج وإشاعته والترغيب فيه والحض عليه، وهذا يُظهر عالمية السنة النبوية؛ لأنها تعايش الإنسان، وتوفِّي حقه من طبيعته وفطرته، ولما كانت الحضارات والديانات السابقة والفلسفات الوضعية لا

(1) تنظر هذه الإحصائيات في كتاب الدعوة الإسلامية والإنقاذ العالمي، عبد الله ناصح علوان: 16-23.

(2) ينظر: موقع <http://arabic.cnn.com>.

(3) الباءة: القدرة على النكاح والتزوج ينظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: 1/160.

(4) التبتل: الانقطاع عن النساء وترك النكاح، المصدر السابق: 1/94.

(5) ابن حنبل، مسند الإمام أحمد، ح (12613): 20/63، والحديث صحيح.

(6) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، ح (1006):

تعايش ولا توفي الفطرة حقها اصطدمت بواقع هذه الفطرة وأدت بها إلى الانزواء في الأديرة والكنائس والمعابد، وجعلت الإنسان يعيش هملاً وسدى من غير توجيه ولا إرشاد.

المبحث الثاني

وفاء السنة النبوية بحاجات البشرية الروحية

يُعد الجانب الروحي في النفس البشرية المرتكز الأساسي الذي بمقتضاه يتجه إلى عمل الخير والشر وبصلاحه يؤدي إلى صلاح الجوانب الأخرى، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه مرفوعاً «...وإنَّ في الجسد مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»⁽¹⁾، فالإنسان السَّوي لا يمكنه تجاهل المطالب الروحية التي تُشكِّل نصفه الآخر مع الجسد، ومن أجل ذلك هو محتاج إلى إطفاء ظمئه الروحي من خلال التدين، ولما كانت هناك ديانات مُحرفة ومناهج ضالة فلا بد على طالب الحق أن يتعرف على الدين الصحيح الذي يوفيه حقه، فخلاص البشرية لا يمكن بدين مُحرف، ولا بإهمال لسمو الروح والقيم الخلقية «فأنت بالروح لا بالجسم إنسان»، وقد برزت حضارة الإسلام من خلال امتلاكها جانباً روحياً نقياً عالمياً، يقول شبينلجز: «إنَّ للحضارات دورات فلكية، تغرب هنا لتشرق هناك، وإن حضارة جديدة أوشكت على الشروق في أروع صورة هي حضارة الإسلام الذي يملك أقوى قوة روحانية عالمية نقية»⁽²⁾، وقد بسطت السنة النبوية حقائقها المتعلقة بحاجات البشرية الروحية على كل أمور الحياة انطلاقاً من توازنها بين مطالب الجسد والروح، ويمكن تجلية بعض من ذلك من خلال ما يأتي:

المطلب الأول: التوكل على الله والاعتصام به

تغرس السنة المطهرة في النفس البشرية من القيم الروحية التي لها الأثر الكبير في سعادة البشرية وراحتها، ومن هذه القيم الفاضلة والفاعلة التوكل على الله والاعتصام به، فالتوكل على الله هو ثمرة توحيده والإيمان به، وهذه القيمة الروحية تجعل العبد قوياً بربه؛ لأن من انعدم توكله أو ضعف تكون حياته جحيماً مليئاً بالخوف من العين والحسد والسحر والشعوذة، وانقطاع

(1) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ح (52): 28 / 1.

(2) عبود، مهدي، عقيدة الإسلام أيولوجية المستقبل: 82.

الأرزاق، وفقدان الوظائف، ولا ريب أن المتوكلين على الله تعالى لا تتناهم هذه المخاوف ويعيشون سعداء أقوياء وراضين ومطمئنين لتوكلهم على ربهم واعتصامهم به، فهم يوقنون إيقاناً كاملاً بأن الله تعالى بيده الخير وأن كل شيء بأمره - جل وعلا - وأن الأمة لو اجتمعت على نفع أحد بشيء لم يكتبه الله تعالى لم ينفعوه، وكذا لو اجتمعوا على الإضرار بأحد لم يكتبه الله تعالى لم يضره، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: «يَا غُلَامُ، إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، وَإِذَا سَأَلَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ...»⁽¹⁾، فهذا الحديث اشتمل على حقيقة عظيمة تُريح فطرة الإنسان، وتقوي عزيمته، وترسخ ثباته، وهي الاستعانة بالله تعالى والتوكل عليه والاعتصام به، ولا تجعله مشئت البال، وموزع الأفكار، ولذا لا يصيب المؤمن المتوكل على الله الانهيار عند الشدائد والمحن، فالعون الإلهي والثقة بالله تكسبه قوة وتحملها على شدائد الحياة ومشاقها، ومن أجل ذلك ازدادت حالات القلق والاكتئاب في أنحاء العالم بسبب تجاهل هذه القيم الروحية، وقد أقرت منظمة الصحة العالمية سنة (1984م) بأن العامل الروحي هو رابع المكونات للصحة العامة، والتي تشمل العناصر البيئية، والنفسية، والاجتماعية، فالتوكل على الله والاعتصام به قيمة روحية لا تخص البشر وحدهم، بل تتعداها إلى الحيوانات فالطيور ترزق به، ففي الحديث: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ؛ لَرَزَقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا»⁽²⁾، فالطيور فطرها الله تعالى على الأخذ بالأسباب، ولذا لم تجلس في أوكارها، بل هي تغدو لطلب رزقها وهي جائعة، ثم ترجع إلى أوكارها في آخر النهار، وقد شبعت بطونها، وهي لا تزرع الحب، ولا تحصده، ولا تدخره؛ لضعفها وقلة حيلتها، ولكن الله يرزقها يوماً بيوم،

(1) ابن حنبل، مسند الإمام أحمد، ح (2669): 4 / 409، والترمذي، جامع الترمذي، كتاب صفة القيامة والرفائق والورع، ح (2516): 4 / 248، وصححه الترمذي، والحديث كل رجاله ثقات.

(2) تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا: أي تغدو بكرة وهي جياغ، وتروح عشاء وهي ممتلئة الأجواف، ينظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: 80 / 2.

(3) ابن حنبل، مسند الإمام أحمد، ح (205): 1 / 332، والحديث كل رجاله ثقات.

لذا ينبغي أن نأخذ بالأسباب ونتوكل على الله، فسنة الأخذ بالأسباب قررتها السنة النبوية؛ لأن مشيئة الله تعالى وحكمته اقتضتها، كما أنها أفردته تعالى بالتوكل عليه، وهذا الأمر لا يستغني عنه أحد العالمين، فقد كان ﷺ يأخذ به، ويوجه أصحابه في مراعاتها لهذه السنة الربانية.

المطلب الثاني: تحقيق الطمأنينة والأمن الروحي

الطمأنينة والأمن الروحي من أعظم نعم الله تعالى على الإنسان؛ لأنه بدونه تخلو الحياة البشرية من السعادة، والراحة النفسية والجسمية، وصلاح البال، وقد جاءت النصوص القرآنية والمرويات الصحيحة في بيان دور الحاجات الروحية وأثرها الكبير في استقرار النفس وطمأنينة القلب، ومنها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: 28)، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ (محمد: 2) «وإصلاح البال نعمة كبرى تلي نعمة الإيمان بالقدر، والقيمة والأثر والتعبير يلقي ظلال الطمأنينة والراحة والثقة والرضى والسلام، ومتى صلح البال، استقام الشعور والتفكير، واطمأن القلب والضمير، وارتاحت المشاعر والأعصاب، ورضيت النفس واستمتعت بالأمن والسلام»⁽¹⁾، ويعد الأمن الروحي ثمرة من ثمرات التوكل على الله تعالى والاعتصام به، ذلك أنه يحقق طمأنينة النفس وصحتها، فالصحة النفسية هي: «أن يعيش الإنسان على فطرته في قرب من الله تعالى، وسلام مع الناس، ووثام مع النفس، وسلامة في الجسد، ونجاح في الحياة»⁽²⁾، وقد رسمت السنة النبوية في ضوء علم النفس منهجاً متوازناً لبّت فيه جميع احتياجات النفس الإنسانية من العبادات والمعاملات والأخلاق، ومن هنا كان شعور المسلم بحلاوة إيمانه واستقرار نفسه واطمئنانه سواء كان في السراء أو الضراء، وهذا مما يحقق الصحة النفسية، ففي الحديث النبوي «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»⁽³⁾، وأكثر الذين

(1) عودة محمد، وآخرون، الصحة النفسية في ضوء علم النفس والإسلام: 64.

(2) قطب، سيد، في ظلال القرآن: 3281/6.

(3) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الزهد والرفائق، باب المؤمن أمره كله خير، ح (2999)، 4/2295.

اعتنقوا الإسلام من أهل الديانات الأخرى إنما قادتهم فطرتهم السليمة إلى الإسلام إذ وجدوا الانسجام الطبيعي والتطابق الكبير بين الإسلام وضمايرهم⁽¹⁾، «ومعاني ومضامين الأمن في العربية، وآيات القرآن الكريم، وأحاديث السنة النبوية: الطمأنينة المقابلة للخوف والفزع والروع في عالم الفرد والجماعة، وفي الحواضر، ومواطن العمران، وفي السبل والطرق، وفي العلاقات والمعاملات، وفي الدنيا والآخرة جمعياً»⁽²⁾، فالسنة النبوية عالجت الفراغ الروحي وذلك بتشريعاتها الكثيرة من الأذكار والعبادات المختلفة التي تنمي الأمن والطمأنينة وسكون النفس واستقرارها، وهذا الأمر هو السبب في قلة الجرائم وظاهرة الانتحار في البلدان الإسلامية، بينما نجد التوجه المادي وفقدان الجانب الروحي في المجتمعات الغربية هو الدافع الرئيس في ظهور الجرائم والانتحار، وأكّدت ذلك الإحصائيات الصادرة عنهم⁽³⁾ حيث يقع في أمريكا أربعة ملايين ونصف مليون جريمة خطيرة تقع كل عام: جريمة قتل كل 29 دقيقة، جريمة اغتصاب (زنى بالإكراه) كل 17 دقيقة، جريمة اغتصاب مال كل دقيقتين، جريمة سرقة كل 17 ثانية⁽⁴⁾، وقد أشار المؤرخ أرنولد توينبي إلى أن «الأزمة التي يعاني منها الأوروبيون في العصر الحديث إنما ترجع في أساسها إلى الفقر الروحي، وأن العلاج الوحيد لهذا التمزق الذي يعانون منه الرجوع إلى الدين»⁽⁴⁾، ولذا كثرت عند الغربيين المصحات النفسية، وانتشرت فيهم شركات التأمين المتنوعة؛ لكثرة مخاوفهم على كل شيء يخشون منه المصائب، أو فقدان، ولم يشفع لهم تقدمهم العلمي والتقني في تحقيق الطمأنينة، والأمن الروحي، ومما يؤكد عالمية هذه القيم الروحية أن البشرية في كل زمان ومكان تسعى إليها؛ لما لها من أثر بالغ في علاج النفس الإنسانية وراحتها وسعادتها.

(1) ينظر: سعد بن خلف العفتان، الإسلام دين الفطرة: 23.

(2) عمارة، محمد، الإسلام والأمن الاجتماعي: 11.

(3) جريشة، علي، أساليب الغزو الفكري: 226.

(4) توينبي، أرنولد، الحضارة في الميزان: 207-208.

المطلب الثالث: محاسبة النفس ومراقبتها (النقد الذاتي)

من أساسيات التربية الروحية محاسبة النفس؛ لأن النفس البشرية تحتاج دائماً إلى مراجعتها ومحاسبتها من حين لآخر؛ حتى لا يغفل الإنسان عن واجباته تجاه ربه، ونفسه، والآخرين، ومن أجل ألا يتخبط في أهوائه، فالمحاسبة قوة ضابطة نابعة من داخل الإنسان تنبهه، وتصحح مساره، وتضبط سلوكه، وباستمرارية هذه المحاسبة تستجيب النفس البشرية لها، فواعظ النفس مهم في إتيان الأعمال الصالحة مما يجعلها متجددة في النفس، وبذلك ينعكس على رقي المجتمعات وتقدمها على الصُّعد كافة، وهذه المحاسبة تتوافق مع الفطرة الإنسانية، فجاء القرآن الكريم أمراً بها، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ (الحشر: 18)، وهذه المحاسبة توقظ النفس البشرية إلى مواضع التقصير والنقص والضعف، وورد في السنة المطهرة أنه ﷺ سأل جبريل عليه السلام عن الإحسان فأجابه: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ»⁽¹⁾، فمقام الإحسان من أعظم وسائل التربية الروحية وأفضلها في تهذيب النفس البشرية، لذا ربت السنة النبوية النفس البشرية على الإحساس بالمسؤولية، وتقوية الوازع الديني، فجعلت الإنسان يقف مع نفسه وفقه محاسبة وتأمل من أجل مراجعتها وتصحيح سيرها، وهذه المراقبة ثمرتها كسب الفضائل، أو ترك الرذائل، كما في قوله ﷺ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ؟»⁽²⁾، فقوة القوانين مهما بلغت قوتها فلن تستطيع إصلاح المجتمع؛ لأن هناك فرقاً بين الالتزام الداخلي، والالتزام الخارجي، فالقوانين الوضعية تكتفي بمعالجة الظواهر فقط، بينما كانت السنة النبوية تزرع في النفس البشرية المحاسبة والمراقبة في السر والعلن، وبه يتحقق صلاح الفرد ومن ثم المجتمع، وقد مارست أمم العالم المتحضر الرقابة والمحاسبة سواء كان ذلك في السلوك، أم الأخلاق، أم التشريع، وقد صرح أحد الأمريكيين بالأثر النافع للنقد والمحاسبة، فقال: «إننا ننقد أنفسنا

(1) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ...، ح (50): 1/ 27.

(2) الترمذي، جامع الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب في القيامة، ح (2417): 4/ 190، وقال: «حديث حسن صحيح».

باستمرار، وهذا مما يؤهلنا للبقاء في القمة⁽¹⁾، فالمحاسبة صفة ملازمة لكل نهوض مستقيم في الحياة للإنسانية، وهي إحدى وسائل الوقاية من الفساد والانحراف، ومعالجة الأخطاء التي تصيب الأفراد والمجتمعات، وما دامت صفة ملازمة للإنسانية فقطعاً أنها عالمية لا تخص قوماً أو فئة من الناس، وليست تخص زمناً معيناً دون غيره من الأزمان مهما اختلفت العصور؛ فالإنسان مطالب بها في كل الأحوال والأوقات لحاجته الماسة إليها.

المبحث الثالث

وفاء السنة النبوية بحاجات البشرية الأخلاقية

تضمنت السنة النبوية بعد القرآن الكريم كثيراً من القيم الأخلاقية ومحاسنها التي يحتاجها البشر عموماً، وهذا الأمر متفرع عن عالمية هذا الدين وشموله واستيعابه للأمم والأجناس البشرية، فالقيم الأخلاقية في السنة النبوية عالمية في ذاتها وهي مع ذلك مرنة وواقعية وواضحة في تطبيقها، إذ هي تستوعب كل مناحي الحياة وألوان السلوك البشري وفي شتى المجالات في الجماعات والأفراد، والسلم والحرب، والاقتصاد، والسياسة، والراعي والرعية، وغيرها من المجالات، كما أنها ليست مخصصة بالمسلمين؛ لأنها مركوزة في فطر الخلق مهما اختلفت مللهم ونحلهم، وهذا بدوره يُعد مدخلاً للدخول في هذا الدين، ويمكن تجلية السلوك الأخلاقي القولي والعملية ووفاء السنة النبوية بهما من خلال ما يأتي:

المطلب الأول: العدل

تحتل فضيلة العدل مكانة متميزة في السنة المطهرة؛ فهي قيمة مطلقة وميزان قويم لا مجال للتلاعب فيه، أو النسبية، أو الانتقائية، فالجميع يستوي في إعماله حتى لو كان صاحب الحق بغيضاً، فالعدل «يكفل لكل فرد وجماعة قاعدة ثابتة للتعامل لا تميل مع الهوى، ولا تتأثر بالبغض، ولا تبدل مجاراةً للصهر والنسب والغنى والفقر، والقوة والضعف»⁽²⁾، وقد حرص الرسول ﷺ على تأكيد مبدأ العدل؛ حتى تتبناه الأمة من خلال أخلاقها وسلوكها السامي في جميع أمورها

(1) زنجير، محمد رفعت، مقال بعنوان: حول النقد الذاتي وأهميته للنهضة والحياة <http://www.nashiri.net>

(2) قطب، سيد، في ظلال القرآن: 4 / 2190.

الصغيرة والكبيرة، كيف لا وهو الأسوة الحسنة، ومن هنا ندرك سبب قسمه في إقامة العدل ولو كان على ابنته فاطمة عليها السلام، «وَإِنَّمَا اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»⁽¹⁾، فقد بين أن العدل يجب تطبيقه على جميع الرعية من غير استثناء أحد، وهذا العدل منه إنما هو امتثال لأمر ربه تعالى في قوله: ﴿وَأَمْرٌ لِّأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ (الشورى: 15)، ولذا أعلن مساواة البشرية في جميع أجناسها وألوانها ملغياً الفوارق والتمييز العنصري بين البشر إلا بالتقوى، فقال في حجة الوداع: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى»⁽²⁾، وهذا الحديث أكبر دليل على عالمية الرسالة النبوية في إذابتها الفوارق بين الأجناس، وهو سبب من أسباب سرعة انتشار هذا الدين والتمسك به وترسيخه لمبدأ سواسية البشر في الخلقة والحقوق، فالعدل ثماره كلها طيبة، ومنها عمران البلدان، وحصول الأمن العام، واستقرار المجتمعات، ونيل كل ذي حق حقه، ونماء الأموال، وتحقيق الازدهار، وبناء الأمم والحضارات، فالبشرية في ظل حضارة الإسلام تطمئن إلى نيل حقوقها إذ هي تدرك أنها تنصر المظلوم وتنصفه، وتأخذ على يد الظالم.

المطلب الثاني: الوفاء بالعهد

حفلت السنة النبوية بالكثير من النصوص الدالة على الوفاء بالعهود والمواثيق العامة والخاصة؛ لما فيها من خير في تحقيق المصالح، وفرض المنازعات، وحل المشكلات بين الأفراد والجماعات، ولم يكن الوفاء بالعهود والمواثيق في السنة النبوية حبراً على ورق، بل مارسه المسلمون خلقاً عملياً بدءاً من النبي ﷺ وحتى آخر خلافة تمسكت بعري الإسلام، ومن النصوص النبوية التي تحذر من الغدر بالعهود والمواثيق قوله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِداً لَمْ يَرْحَ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»⁽³⁾، وقوله: «لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعْرَفُ بِهِ»⁽⁴⁾، ولم يعرف

(1) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان، ح (6406): 2491/6.

(2) ابن حنبل، مسند الإمام أحمد، ح (23489): 474/39، والحديث إسناده صحيح.

(3) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم، ح (2995)، 3/1154.

(4) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الجزية، باب إثم الغادر للبر والفاجر، ح (3015)، 3/1164.

العالم عبر قرونه الطويلة تشريعاً يُجرّم الغدر ويجعله محرماً إلا في عام (1907م) في مؤتمر لاهاي «فقد نصت المادة (23) في القانون الدولي على أنه من المحظور قتل، أو جرح أفراد من الدولة، أو الجيش المعادي باللجوء إلى الغدر»⁽¹⁾، وجاء في حديث أبي رافع رضي الله عنه قال: «بَعَثَنِي قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: فَلَمَّا رَأَيْتُ النَّبِيَّ وَقَعَ فِي قَلْبِي الْإِسْلَامُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ، قَالَ: إِنِّي لَا أَخِيسُ بِالْعَهْدِ⁽²⁾، وَلَا أَخِيسُ الْبُرْدَ⁽³⁾، أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ، فَإِنْ كَانَ فِي قَلْبِكَ الَّذِي فِيهِ الْآنَ، فَارْجِعْ»⁽⁴⁾، وهذه الأحاديث من أهم ما ورد في حفظ العهود والمواثيق، وحديث أبي رافع يؤصل للحصانة الدبلوماسية، وتأمين الرسل والسفراء للدول، وهذا الأمر لم تهتد إليه الدول إلا في القرون المتأخرة، تحديداً في القرن الثامن عشر في عام (1794م)⁽⁵⁾، فالسنة النبوية أصّلت للقانون الدولي العام قبل ظهور القوانين الدولية المعاصرة، ووضعت قاعدة حرمة المعاهدات وقديسيها سِلماً وحرباً، لما له من أثر كبير في تنمية العلاقات الدولية وحل النزاعات، وهذا يؤكد على عالمية السنة النبوية التي حرصت على تحقيق مصالح الإنسانية وحقوق الإنسان من خلال الوفاء بالعهود المعقودة، فالأخلاق الفاضلة وقيمها مطلب لجميع العقلاء في كل الأمم والمجتمعات قديماً وحديثاً، ومن هنا كانت سيرة النبي ﷺ وسنته تطبيقاً واقعياً للامتنثال والالتزام بالوفاء بالعهود والمواثيق.

المطلب الثالث: الرحمة

أولت السنة النبوية أهمية كبيرة لخلق الرحمة؛ لكونها تحقق المعاني الإنسانية النبيلة، وتشيع القيم الأخلاقية، والرحمة العامة مقصد إرسال الله تعالى للنبي ﷺ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً

(1) أبو الوفا، أحمد، الوسيط في القانون الدولي: 699.

(2) لا أَخِيسُ بِالْعَهْدِ: أي لا أنقضه، ولا أفسده، ينظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: 2 / 92.

(3) لا أَخِيسُ الْبُرْدَ: البرد: الرسول المستعجل، والمراد: أي لا أحبس الرسل الواردين عليّ، ينظر: الزخشي، أساس البلاغة: 19.

(4) ابن حنبل، مسند الإمام أحمد، ح (17015): 28 / 230، وابن حبان، صحيح ابن حبان، كتاب السير، باب المودعة والمهادنة، ح (4877): 11 / 230، وصححه ابن حبان، والحديث صحيح إذ إن كل رواه ثقات.

(5) سباط، حسام محمد سعد، اللجوء السياسي في الإسلام: 9.

لِلْعَالَمِينَ» (الأنبياء: 107)، «فجاءت هذه الآية مشتملة على وصف جامع لبعثة محمد ﷺ، ومزيتها على سائر الشرائع مزية تناسب عمومها ودوامها، وذلك كونها رحمة للعالمين ... صيغت بأبلغ نظم إذ اشتملت هاته الآية بوجازة ألفاظها على مدح الرسول ﷺ، ومدح مُرسله تعالى، ومدح رسالته بأن كانت مظهر رحمة الله تعالى للناس كافة، وبأنها رحمة الله تعالى بخلقه... وتفصيل ذلك يظهر في مظهرين: الأول: تخلق نفسه الزكية بخلق الرحمة، والثاني: إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته»⁽¹⁾، فالله تعالى أرسله رحمة لجميع الأمم ذكرهم وأنثاهم، صغيرهم وكبيرهم، مؤمنهم وكافرهم، ففي الحديث: «قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، قَالَ: إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَنًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً»⁽²⁾، والرحمة نوعان: غريزية ومكتسبة، فالغريزية قد جُبل بعض العباد عليها إذ جعل في قلوبهم الرأفة والرحمة والحنان على الخلق، ففعلوا بمقتضى هذه الرحمة جميع ما يقدرُونَ عليه من نفعهم بحسب استطاعتهم، وأمّا الرحمة المكتسبة فهي التي يكتسبها العبد بسلوكه كُل طريقة ووسيلة تجعل قلبه على هذا الوصف فيرغب في فضل ربه، ويسعى بالسبب الذي ينال به ذلك⁽³⁾، وقد كثرت المرويات الحديثية كثرة بالغة دالة بمفهومها على خلق الرحمة؛ وذلك لارتباطها الكبير بالعلاقات الإنسانية سواء كانت اجتماعية، أو أسرية، أو اقتصادية، أو سياسية، فلا يخلو أي تصرف إنساني إلّا ويتضمن هذا الخلق السامي حتى شمل هذا الخلق الرحمة بالحيوان، فعن النبي ﷺ «بَيْنَا رَجُلٌ بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوَجَدَ بئْرًا، فَنَزَلَ فِيهَا، فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلَ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ الْبئْرَ، فَمَلَأَ خُفَّهُ مَاءً، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّا لَنَافِي الْبَهَائِمِ لِأَجْرًا؟ فَقَالَ: فِي كُلِّ ذَاتِ كَيْدٍ رَطِيَّةٌ أَجْرٌ»⁽⁴⁾، فقد كوفئ هذا الرجل برحمته الغريزية التي تمكنت من وجدانه بأن غفر الله تعالى له جزاء على هذا العمل اليسير، وقد علّق

(1) ابن عاشور، طاهر، التحرير والتنوير: 121 / 17.

(2) مسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، ح (2597)، 2005 / 4.

(3) ينظر: السعدي، عبد الرحمن، بهجة قلوب الأبرار وقرّة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار: 270.

(4) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ح (5662)، 2238 / 5.

النبي ﷺ رحمة الله تعالى بمن يرحم خلقه، وأن رحمته تعالى لا تُنال إلا برحمة الناس، فقال: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ أَهْلُ السَّمَاءِ...»⁽¹⁾، وأكد كذلك على خلق الرحمة في صور عديدة، ومنها: الرحمة بالصغار والعطف عليهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا، فَقَالَ الْأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشْرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يَرْحَمُ»⁽²⁾، وقد امثال صحابة النبي ﷺ بخلق الرحمة وبنوا عليه معاملاتهم، فقد روى أن عمر بن الخطاب «استعمل رجلاً من بني أسد على عمل، فجاء يأخذ عهده، قال: فأتي عمر رضي الله عنه ببعض ولده فقَبَّلَهُ، قال أتقبل هذا؟! ما قبلت ولداً قط، فقال عمر: فأنت بالناس أقل رحمة، هاتِ عهدنا لا تعمل لي عملاً أبداً»⁽³⁾، بل وشملت هذه الرحمة المخالفين بالعقيدة، ففي حديث محرز بن قيس أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما «أَمَرَ بِشَاةٍ فَذَبَحَتْ، فَقَالَ لِقِيْمِهِ: هَلْ أَهْدَيْتَ لِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ شَيْئًا؟ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُّهُ»»⁽⁴⁾، قال ابن بطال: «في هذه الأحاديث الحض على استعمال الرحمة للخلق كلهم كافرهم ومؤمنهم ولجميع البهائم والرفق بها، وأن ذلك مما يغفر الله به الذنوب ويكفر به الخطايا، فينبغي لكل مؤمن عاقل أن يرغب في الأخذ بحظه من الرحمة، ويستعملها في أبناء جنسه وفي كل حيوان، فلم يخلقه الله عبثاً، وكل أحد مسؤول عما استرعيه وملكه من إنسان، أو بهيمة لا تقدر على النطق وتبين ما بها من الضر، وكذلك ينبغي أن يرحم كل بهيمة وإن كانت في غير ملكه، ألا ترى أن الذي سقى الكلب الذي وجده بالفلاة لم يكن له ملكاً، فغفر الله له بتكلفة النزول في البئر وإخراجه الماء في خفه وسقيه إياه، وكذلك كل ما في معنى السقي من الإطعام»⁽⁵⁾، وهذا الخلق العظيم الذي له

(1) ابن حنبل، مسند الإمام أحمد، ح (6494): 2/160، والترمذي، جامع الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين ح (1924): 3/388، وصححه، والحديث رواه ثقات.

(2) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، ح (5651): 5/2235.

(3) البيهقي، السنن الكبرى: 9/41.

(4) الحميدي، مسند الحميدي، ح (605): 1/505.

(5) ابن بطال، شرح صحيح البخاري: 9/220.

ارتباط كبير بالمعاملات الإنسانية وبه ندرك عالمية السنة النبوية التي أخذت بعض صورها مؤسسات المجتمع المدني في وقتنا المعاصر.

المطلب الرابع: التسامح

شغلت مسألة التسامح والتعصب عقول الكثيرين من منظمات حقوق الإنسان، والمصلحين، والدعاة، والساسة؛ خاصة في المجتمعات البشرية المتعددة الطوائف والتي لها خصوصية دينية، أو عرقية، أو قومية، أو لغوية؛ فالتسامح له أثر فعال وواقعي ملموس، إذ يُعد العمود الفقري لحقوق الإنسان ومعرفته يظهر ضده وهو التعصب، ويراد به: «غلو المرء في اعتقاد الصحة بما يراه، وإغراقه في استنكار ما يكون على ضد ذلك حتى يحمله الإغراق والغلو على اقتياد الناس لرأيه بقوة، ومنعهم من إظهار ما يعتقدون ذهباً مع الهوى في ادعاء الكمال لنفسه وإثبات النقص لمخالفيه من سائر الخلق»⁽¹⁾، وقد شهدت المرويات الحديثية عن النبي ﷺ بتسامحه مع المخالفين له في العقيدة، وقد أثبت هذا التسامح عظمة هذا الدين، الذي كان سبباً من أسباب انتشاره ودخول الكثير في الدين الحق، ومن هنا جاءت وصايا النبي ﷺ في سنته بأهل الذمة مبنية تحريم دمائهم⁽²⁾، وسنة عيادة مرضاهم⁽³⁾، والقيام لجنازة موتاهم⁽⁴⁾، وتحمل الدية لمن قتل في حي من

(1) إسحاق، أديب، التعصب والتسامح: 13.

(2) فقد وصّى النبي ﷺ أصحابه بالقبض خيراً، فقال: «إِنَّكُمْ سَتَفَتَحُونَ أَرْضًا يُذَكَّرُ فِيهَا الْقِيَرُاطُ، فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا، فَإِنَّ هُمْ ذِمَّةٌ وَرَحِمًا»، مسلم، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم، باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر، ح (2543): 4/ 1970، وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرَحْ رَأِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا تَوَجَّدَ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»، سبق تخريجه (ص 15).

(3) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَمَرَضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: أَسْلِمَ، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ، وَهُوَ عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ: أَطْعَمَ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ» البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصل عليه، ح (1290): 1/ 455.

(4) عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال: «كَانَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ، وَقَيْسُ بْنُ سَعْدٍ قَاعِدَيْنِ بِالْقَادِسِيَّةِ، فَمَرُّوا عَلَيْهَا بِجَنَازَةٍ، فَقَامَا، فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، أَيُّ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ، فَقَالَا: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّتْ بِهِ جَنَازَةٌ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا جَنَازَةٌ

أحيائهم⁽¹⁾، والتعامل المالي معهم⁽²⁾، كما يتبين من خلال سنته ﷺ أن اختلاف الناس غايته التعارف وليس التناكر، والتعايش وليس الاقتتال والتناحر، فالتسامح يقبل التنوع، ولا يعني التسامح التخلي عن الدين الحق والتفريط فيه، ولا عن حقوق الأفراد وخصوصياتهم، ولا ذوبان شخصياتهم، أو ذهاب مصالحهم، وإنما يراد به التعايش مع الآخر بضوابطه الشرعية، وكل هذا يؤكد عالمية هذه السُّنة وأثرها في استقرار السُّلم الاجتماعي والأُممي، فالتسامح وتعزيز قيمه الاجتماعية ضرورة يتحقق من خلالها نبذ العنف والتطرف، وضبط الاختلافات وإدارتها، وحفظ حقوق الأقليات؛ لتحقيق المصالح بين الأفراد والجماعات، وهذا الأمر كانت السنة النبوية هي الرائدة فيه، وقد سبقت بذلك المادة رقم (1) من القانون العام لليونسكو في الفقرة (3) حيث تقول: «إن التسامح مسؤولية تشكل عماد حقوق الإنسان»⁽³⁾، وقد صرحت ديباجة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان (1948م) بضرورة الأخذ بالتسامح وفيها: «نحن شعوب الأمم المتحدة وقد آلينا على أنفسنا: أن ننقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب التي في خلال جيل واحد جلبت على الإنسانية مرتين أحزاناً يعجز عنها الوصف، وأن نؤكد من جديد إيماننا بالحقوق الأساسية للإنسان وبكرامة الفرد وقدره وبما للرجال والنساء والأمم كبيرها وصغيرها من حقوق

= يهودي، فقال: أَلَيْسَتْ نَفْسًا البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي، ح (1249): 441 / 1.

(1) عَنْ بُشَيْرِ بْنِ يَسَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَعِمَ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، يُقَالُ لَهُ: سَهْلُ بْنُ أَبِي حَنْمَةَ أَخْبَرَهُ أَنَّ نَفَرًا مِنْ قَوْمِهِ انْطَلَقُوا إِلَى خَيْبَرَ، فَتَفَرَّقُوا فِيهَا، وَوَجَدُوا أَحَدَهُمْ قَتِيلًا، وَقَالُوا لِلَّذِي وَجَدَ فِيهِمْ قَتْلَتُمْ صَاحِبَنَا؟ قَالُوا: مَا قَتَلْنَا، وَلَا عَلِمْنَا قَاتِلًا، فَانْطَلَقُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: انْطَلَقْنَا إِلَى خَيْبَرَ، فَوَجَدْنَا أَحَدَنَا قَتِيلًا، فَقَالَ: الْكُبَرُ، الْكُبَرُ، فَقَالَ هُمْ: تَأْتُونَ بِالْبَيِّنَةِ عَلَى مَنْ قَتَلَهُ؟ قَالُوا: مَا لَنَا بَيِّنَةٌ، قَالَ: فَيُحْلِفُونَ؟ قَالُوا: لَا تَرْضَى بِأَيِّانِ الْيَهُودِ، فَكَرِهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُبْطَلَ دَمُهُ، فَوَدَّاهُ مِئَةً مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ. البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الديات، باب القسامة، ح (6502): 6 / 2528.

(2) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: اشْتَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ يَهُودِيٍّ طَعَامًا وَرَهْنَهُ دِرْعَهُ، البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الرهن، باب الرهن عند اليهود وغيرهم، ح (2378): 888 / 2.

(3) ينظر: موقع <http://www1.umn.edu/humanrts>

متساوية، وأن نبين الأحوال التي يمكن في ظلها تحقيق العدالة واحترام الالتزامات الناشئة عن المعاهدات وغيرها من مصادر القانون الدولي...، وفي سبيل هذه الغايات اعترزنا أن نأخذ أنفسنا بالتسامح، وأن نعيش معاً في سلام وحسن جوار...»⁽¹⁾، فالأقليات والطوائف من غير المسلمين حظيت بالرعاية والتسامح من خلال السنة النبوية، وهذا الأمر يدعو إلى الاعتزاز بالسنة النبوية من خلال انفتاحها وتفاعلها، وتعاملها الصحيح مع الفطرة السليمة، وكل ذلك يعطي الصورة الناصعة للإسلام وتقبله، وبه يمنح فرصة المراجعة لغير المسلم لدينه المحرف والباطل، فمن يرى سماحة الإسلام ورحمته يدرك أنه جاء موافقاً لفطرته وإنقاذاً له من الظلمات وزيف العقائد إلى نور الإسلام وهديه.

المطلب الخامس: التساند بين الفرد والجماعة

اختطت السنة النبوية منهجاً متميزاً بين المناهج التي تتردد بين الإفراط والتفريط، وبين الإسراف والتقتير، وبين حق الفرد والجماعة، فالإنسان أصيل في فرديته وأصيل في جماعته، وهذه هي فطرته التي لا تستقيم بأحدهما دون الأخرى، ومن هنا كانت السنة النبوية لها نظرتها الشمولية، فمن المسلم به أن الفردية تقوم على تمجيد الفرد وتجعله الغاية والمحور مما يولد الأنانية المطلقة وتقديم مصلحة الفرد على مصلحة الجماعة، وأما المذهب الاجتماعي فعلى عكس المذهب الفردي فيقوم على أساس تقديس الجماعة، وينجم عن ذلك إنكار ذاتية الفرد وانعدام قيمته الاجتماعية، وكل من هذين المذهبين تجاهل فطرة الإنسان، وافترضا التصارع والتناقض بين الفرد والجماعة، وقد جاءت أحاديث نبوية كثيرة التي تؤصل لأهمية التساند بين الفرد والجماعة، فمنها حديث «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ، وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا⁽²⁾ عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيْبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ

(1) ينظر: الجمعية العامة للأمم المتحدة، الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، مطبوع في آخر كتاب حقوق الإنسان بين

تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة لمحمد الغزالي: 262.

(2) استهموا: اقترعوا ليأخذ كل منهم سهماً أي نصيباً، ينظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: 2/ 429.

أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجْوًا، وَنَجَوْا بِجَمِيعًا»⁽¹⁾، فالسنة النبوية توازن بين حق الفرد وحق الجماعة فتجعل المسؤولية قضية مشتركة بينهما؛ لأن ذلك مما يتلاءم مع فطرة الإنسان بين أفراد مجتمعه، فبناء المجتمع على الترابط والتماسك غاية ما كانت السنة النبوية تدعو إليه، واستلزم هذا التساند والترابط نصرة المظلوم، ودفع الظلم عنه والأخذ على يد الظالم، ففي الحديث «أَنْصُرُ أَخَاكَ ظَالِمًا، أَوْ مَظْلُومًا، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: تَحْجُزُهُ، أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ»⁽²⁾، فقد أقر النبي ﷺ بنصرة الأخ الظالم والمظلوم معاً؛ لأن حقيقة النصر ليست مقتصرة على المعنى الشائع وهو نصرة المظلوم، بل يتحقق أيضاً بنصر الظالم، وذلك يتحقق بحجزه عن الظلم والأخذ على يده، والمشاهد والمطلع على أحوال الأمم والدول المعاصرة يجد أنها إما تقوم على أساس مذهب فردي، وإما على أساس مذهب جماعي، وقد تمزقت الإنسانية طويلاً بين هذين المذهبين، وهذا يؤكد على أن السنة النبوية هي دعوة عالمية بينت أن التساند بين الفرد والجماعة يكمل بعضهما بعضاً، وليس متناقضين ومتصارعين⁽³⁾.

(1) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، ح (2361)؛ 2/ 882.

(2) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب المظالم، يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه إذا خاف عليه القتل، ح (6552)؛ 6/ 2250.

(3) ينظر: بسيوني، حسن السيد، الدولة ونظام الحكم في الإسلام: 44.

نتائج البحث

- (1) مما يؤكد عالمية السنة النبوية اشتغالها على الكثير من المبادئ التي تتصل اتصالاً كبيراً بالعدل والتراحم والتعاون والتعاقد والتسامح.
- (2) السنة النبوية تُعد من أكثر أسباب التوجيه في شؤون الحياة، وقيمها الروحية والأخلاقية حيث وفّت بكل ما تحتاجه المجتمعات البشرية مما هو مركوز في فطرها.
- (3) أظهرت المرويات الحديثية في السنة النبوية التطابق الكبير مع الفطرة الإنسانية وفي جميع البيئات والأزمنة.
- (4) غاية السنة النبوية إيصالها الخير إلى جميع الناس وإسعادهم في الحياة وبعد الممات.
- (5) لبّت السنة النبوية دواعي الفطرة السليمة، ومن هنا وفّت بحاجات البشر جميعاً، فالقيم والفضائل تستقي من وحيها السديد، وهي خير ضمان للتعاملات الحسنة بين الناس؛ ولذلك هي ضرورة اجتماعية كما هي ملائمة للفطرة الإنسانية.
- (6) السنة النبوية تعترف بالغرائز الإنسانية وترسم لها طريقاً حلالاً من أجل تصريفها، وتضع لها ضوابط تمنع ضررها عن الأفراد والمجتمعات، وتقيم في داخل نفس الإنسان الإرادة الواعية من أجل ضبط شهواته؛ كيلا يشقى بغرائزه الفطرية، أو يُشقى غيره بها.
- (7) ضرورة توعية المجتمعات بأن الجانب الروحي هو أحد أسباب العلاج والوقاية من الأمراض النفسية، وهذا الأمر لا يتعارض مع الأخذ بالأسباب وتعاطي الأدوية العلاجية.

المصادر والمراجع

- (1) القرآن الكريم
- (2) ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر الزاوي - ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت - لبنان، 1399 هـ - 1979 م.
- (3) ابن بطل، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، شرح ابن بطل على صحيح البخاري، تحقيق: ياسر ابن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض - السعودية، ط2، 1423 هـ - 2003 م.
- (4) ابن حبان، محمد بن حبان البستي، صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط2، 1414 هـ - 1993 م.
- (5) ابن حنبل، أحمد بن محمد الشيباني، مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرين، مؤسسة الرسالة، ط1، 1416 هـ - 1995 م.
- (6) أديب إسحاق، التعصب والتسامح، بحث منشور في كتاب أضواء على التعصب، بيروت: دار أمواج، 1993 م ط1.
- (7) ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، ط1، 1420 هـ - 2000 م.
- (8) أبو الوفاء، أحمد، الوسيط في القانون الدولي، دار النهضة العربية، القاهرة - مصر، (د، ط)، 2004 م.
- (9) أبو داود: سليمان بن الأشعث، السنن، تحقيق: محمد عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، 1410 هـ.
- (10) إسحاق، أديب، التعصب والتسامح، بحث منشور في كتاب أضواء على التعصب، دار أمواج، بيروت - لبنان، ط1، 1993 م.

- 11) البخاري، أبو عبدالله: محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، تحقيق: مصطفى ديب، دار ابن كثير، بيروت - لبنان، ط3، 1987 م.
- 12) بسيوني، حسن السيد، الدولة ونظام الحكم في الإسلام، القاهرة، عالم الكتب، 1985 م.
- 13) بوريلي، أسكندر، أسرار النوم، ترجمة: أحمد عبد العزيز سلامة، عالم المعرفة، الكويت، 1978 م.
- 14) البوصيري، شرف الدين محمد بن سعيد المغربي، البردة، مطبوعة مع شرح إبراهيم الباجوري، تحقيق: عبد الرحمن حسن محمود، مكتبة الآداب، القاهرة - مصر.
- 15) البيهقي، أحمد بن الحسين، السنن الكبرى، محمد عطا، مكتبة درا الباز، مكة المكرمة، 1414 هـ.
- 16) الترمذي، محمد بن عيسى، الجامع، تحقيق: بشار عواد، دار الغرب الإسلامي - بيروت، 1998 م.
- 17) توينبي، أرنولد، الحضارة في الميزان، ترجمة: أمين محمود الشريف، دار إحياء الكتب العربية (د، ط، ت).
- 18) جريشه علي محمد، ومحمد الزبيق، أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، دار الاعتصام، 1399 هـ.
- 19) الجصاص، أحمد بن علي المكني بأبي بكر الرازي، أحكام القرآن، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي.
- 20) الجمعية العامة للأمم المتحدة، الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، مطبوع في آخر كتاب حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، لمحمد الغزالي، المكتبة التجارية، القاهرة - مصر، ط1، 1963 م.
- 21) الجندي، أنور، عالمية الإسلام، دار المعارف، القاهرة - مصر، 1982 م.
- 22) الحميدي، عبدالله بن الزبير القرشي، المسند، تحقيق: حسين سليم أسد، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط1، 1405 هـ - 1996 م.

- (23) دراز، محمد عبد الله، الدين، (الكويت، دار القلم)، ط1.
- (24) الزبيدي، محمد الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية.
- (25) الزنجشيري، محمود بن عمر، أساس البلاغة، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت - لبنان.
- (26) سباط، حسام محمد، اللجوء السياسي في الإسلام، دار عمار، الأردن، ط1، 1418 هـ - 1997 م.
- (27) السعدي، عبد الرحمن، بهجة قلوب الأبرار وقرّة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، ط4، 1423 هـ.
- (28) الصاوي، عبد الجواد، الإعجاز العلمي في حديث الثلث، مجلة الإعجاز العلمي، 1423 هـ، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة.
- (29) عبود، مهدي، عقيدة الإسلام أيدلوجية المستقبل، دار الكتاب، الدار البيضاء-المغرب، 1976 م.
- (30) العسقلاني، أحمد بن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت - لبنان، 1379 هـ.
- (31) العفتان، سعد بن خلف، الإسلام دين الفطرة، مطبعة المعرفة، حائل - السعودية، ط1، 1414 هـ.
- (32) علوان، عبد الله، الدعوة الإسلامية والإنقاذ العالمي، دار السلام، القاهرة - مصر، ط1، 1405 هـ.
- (33) عمارة، محمد، الإسلام والأمن الاجتماعي، دار الشروق، القاهرة - مصر، ط1، 1418 هـ.
- (34) العماري، محمد عبد القادر، هذا هو الإسلام، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط3، 1973 م.

- 35) عودة محمد، وآخرون، الصحة النفسية في ضوء علم النفس والإسلام، دار القلم، الكويت، ط 4 1418 هـ - 1998 م.
- 36) القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط 2، 1384 هـ - 1964 م.
- 37) قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط 7، 1391 هـ -
- 38) قطب، محمد، الإنسان بين المادية والإسلام، دار الشروق، ط 1418، 12 هـ - 1997 م.
- 39) مسلم، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
- 40) هوفمان، مراد، الرحلة إلى الإسلام يوميات دبلوماسي ألماني، ترجمة: محمد سعيد دباس، مكتبة العبيكان، الرياض، ط 1، 1426 هـ.
- 41) هوفمان، مراد، الإسلام كبديل، ترجمة غريب محمد غريب، مكتبة العبيكان، الرياض، ط 2، 1418 هـ - 1997 م.